دبي، الشارقة، الفجيرة.. ثقافة إنسانية

● الملتقيات الإبداعية العربية على قلتها تتشابه في إيقاعاتها.. هذه المرة اختلفت مشاركتي في ملتقى الإمارات للإبداع .

سألت نفسي : بماذا تميز ملتقى الإمارات.. هل لروعة المشاركين.. أم لدماثة خلق المضيفين.. هي البلد المنظم.. أم هو شعور ابتدعته نفسي؟

ففي الوقت الذي وصلتني دعوة من الجزائر .. كانت دعوة الإمارات تحدد تاريخ افتتاح ملتقاها بآخر يوم لفعاليات الجزائر.. وكنت حريصا على حضور حفل الافتتاح في الشارقة.. وكان عليّ أن أحضر الجزائر .. وفي الوقت نفسه أرتب رحلة الطيران من الجزائر إلى دبي في الوقت المناسب.. ولما كانت رحلات طيران الإمارات الراعية لملتقى الإمارات للإبداع ستجعلني أصل في اليوم الثاني فقد وجدت أن رحلات المصرية من الجزائر إلى دبي عبر القاهرة تجعلني أصل في صباح يوم الافتتاح.. في إمارة الشارقة.

أقلعت من الجزائر في الواحدة ظهرا لأصل القاهرة مع مغيب الشمس ثم أقلعت باتجاه دبي في العاشرة مساء لأصل في الثالثة فجرا إلى مطار دبي.. هي المرة الأولى التي أزور فيها الإمارات.. كانت الفكرة لديّ عن المطار بأنه مطار حديث وأن إجراءات الدخول سهلة.. زحام شديد مخيب للآمال.. أناس من شتى بقاع الأرض.. كأنني في موسم حج.. الأفارقة الأوروبيون، الشرق آسيويون.. التركمان والأتراك الأمريكيون اللاتينيون.. أخذت في إجراءات الدخول ساعة ونصف من طابور بصمة العين.. إلى طابور ختم الدخول.. كل شيء ممل.. يتعامل الموظفون بلا مبالاة فترى من في الطوابير متذمرين.. وما زاد الطين بلة أني لم أجد أحداً في انتظاري.. ولا أعرف عنواناً .. وكان لديّ رقما هاتف زودتني بهما سكرتارية الملتقى وأنا في صنعاء.. اتصلت بالرقمين .. ولأن الوقت فجر لم يرد عليّ أحد.. فضلت السكون حتى الصباح.. أشرقت الشمس.. كررت الاتصال..ويا لفرحتي لقد رد عليّ أحدهم معتذراً من عدم وجود أحد في استقبالي .. أخبرته بأن الأمر عادي فرحلتي هي في الوقت الخطأ.. فقط طلبت منه عنوان مكان السكن .. أخذت تاكسي سائقه بنقالي لطيف.. لم يكن عنوان الفندق معروفاً لديه.. لكنه اتصل بالشركة التي يعمل بها .. قطعنا شوارع خالية من كل شيء.. شوارع تكنسها أشعة الشمس المشرقة.. لم أكن أعلم بأن الشارقة ودبي مدينة واحدة إلا حين عبر التاكسي أحد الشوارع ليرد السائق على سؤالي عن المسافة بين دبي والشارقة بلغة متكسرة :نحن الآن في الشارقة! إذا هي مدينة واحدة.. كنت مرهقا حين وقفت أمام موظفة استقبال فندق اريان.. الغرفة» ١٥٠٧ «الوقت لم يعد كافياً لأخلد الى النوم، التقيت بالدكتور عبد القوي العفيري وبمحمد البشير على طاولة الإفطار.

حفل الافتتاح كان في مقر اتحاد الأدباء بالشارقة.. وكان قريبا من الفندق.. وعلى قاعة الحفل التقيت بلفيف من الأدباء.. من اليمن :عبد القوي العفيري والدبلوماسي في سفارتنا بالإمارات عبد الحكيم الحمادي.. الذي كان قريباً منا.. وعمر عبدالعزيز.. وابتسام القاسمي.. وبرديس خليفة فرسان.. وأحد المذيعين اليمنيين اللامعين في الشارقة.

الروائية الإماراتية أسماء الزرعوني.. وهي نائبة رئيس الاتحاد والأمينة العامة للملتقي.. سكرتارية الاتحاد «سناء» المايسترو المنظم للملتقى وهي التي كانت بتواصلها مع كل المدعوين في الدول المشاركة قد أخرجت الملتقى بشكل رائع ومتقن.. ازدحمت القاعة بحضور كثيف.. كان حفل الافتتاح مميزاً وخفيفاً.. تلخص في كلمة ترحيبية لرئيس اتحاد أدباء الإمارات الأديب الكبير حبيب الصائغ وكلمة أخرى للروائية والقاصة أسماء الزرعوني الأمينة العام للملتقى.. وكلمة المشاركين للناقد فهد الهندال من الكويت ..ثم اختتم الحفل بعرض فلم لقصة قصيرة لمحمد البشير من السعودية.

بعد انتهاء الحفل فررت من زحام المقر إلى أحد المقاهي الأمامية للمقر.. مقهى يطل على خور جميل.. كنت والعفيري قد اخترنا زاويتنا.. رأينا مدير تحرير دبي الثقافية نواف يونس الذي دعوناه إلى طاولتنا ثم التحق بنا عدد من المشاركين: الناقد العراقي رسول محمد رسول والقاص القطري عبدالله وآخرون.. وكان نقاش ممتع حول الربيع العربي والحكمة اليمنية.. وحقن الدماء.

الفعالية التالية بمؤسسة العويس بدبي .. مبنى حديث من عدة أدوار.. الدور الأرضي مقهى إنترنت مجاني ومكتبة.. صالات عرض للوحات تشكيلية.. الدور الثاني عدة صالات مخصصة للفعاليات بقية الأدوار لم نزرها.. تلك المؤسسة الرائدة تعج بالزوار.. تتزاحم إصداراتها المتعددة على أرففها.. مؤسسة عربية نشطة.. ومنارة يشع بهاء المعرفة والثقافة إلى كل أقطارنا العربية والإنسانية..

في تلك الليلة لم نعد مع الركب إلى الشارقة.. فقط كنت والروائي البحريني عبدالله خليفة قد تخلفنا عن الحافلة.. كان الوقت ليلا ودبي تغريك بليلها ومقاهيها.. عرجنا على مقهى يتنفس فيه رواده موسيقى جميلة.. تدور حوريات من سيرلانكا واندينوسا ومن أوكرانيا.. حوريات حديثهن همس.. قضيت وذلك الأديب الكبير الذي كنت قد تعرفت عليه في ملتقى الرواية بالقاهرة قبل سنة ليلة ممتعة.. ليل مليء بالأحاديث حول حياتنا كمبدعين.. حديث يتشعب مع تشعبات الليل وسحره.. ثم استقلينا تاكسي إلى فندقنا سعداء.

في اليوم التالي للملتقى انقسمت جلسات الملتقى إلى عدة جلسات.. الصباحية منها في إحدى قاعات الفندق الذي نسكن فيه.. والمسائية بدبي بمبنى ندوة الثقافة والعلوم.. وهو صرح ثقافي كبير.. يقع المبنى الضخم وسط حديقة مترامية الأطراف.. مبستنة بشكل رائع تبهج النفس.. ويشتمل المبنى الذي بني على الطراز الإسلامي على قاعات واسعة تحتوي أصغرها على خمسمائة مقعد.. ملحق بدار الندوة مكتبة كبيرة.. ومقهى عصري .. كل مكونات المبنى مجهز بأحدث التقنيات والوسائل الفنية المعاصرة.

قدمت شهادتي في تلك الليلة.. حين انتهت الجلسة خرجنا نتحلق حول طاولات المقهى ليفاجئني منظمو الملتقى بتقديم كعكتي عيد ميلاد لي وللشاعر العراقي قاسم سعودي احتفل الجميع بعيد ميلادي وعيد ميلاد زميلي.. ميلادي الذي لم أحتفل به منذ ولدت.. لينشد الجميع سنة حلوة ياجميل.. أطفأت الشمع وتوزعنا قطع كعكتي الجاتوه.. وكانت ليلة جميلة لا تنسى في حديقة مقهى ندوة الثقافة والعلوم بدبي.

عدت منتشيا .. فقد كانت شهادتي تلقائية.. علق عليها البعض بشكل إيجابي.. إلا أن مدير الجلسة المزيني أربكني حين أعلن انتهاء الوقت المخصص لأصمت بغتة بعد أن تلعثمت مرتبكا.

وكان عزائي حين وصلنا إلى الفندق لأجد الصديق الأديب ناصر العبودي، الأمين العام لاتحاد أدباء الإمارات في انتظاري.. وهو الذي ودعته قبل أيام في الجزائر.

كنت سعيدا بحضوره.. دارت بيننا نقاشات حول التجربة العربية في الإمارات.. وحول ذلك النهوض الشامل والنظام المتبع والناجح.. كما هي الشارقة أرض الثقافة العربية.. فقد لاحظت أن الشارقة تضم أفضل المثقفين العرب .. لتكن وطناً جامعاً للمثقفين العرب.

كان كلامه مركزا حول النظام المتبع في الإمارات..المعتمد على العمل ثم العمل.. والذي يسود القانون على الجميع.

إنها تجربة عربية وإنسانية جديرة بالاتباع.. وهي علاج ناجع للنهوض بشعوبنا العربية.. إذا أضفنا إليها الديمقراطية الحقة بكل خصائصها.

في اليوم الثالث للملتقى خصصت الفترة الصباحية كمساحة حرة للمشاركين.. لا ندري أين نذهب.. ولا مع من .. خرجت وعبد القوي العفيري في شوارع مقفرة إلا من سيارات تطير بسرعة مذهلة.. غابة من عمائر عالية.. طفنا بعض الشوارع والأسواق.. لا أحد يعرف لغتنا.. عرجنا على البحر.. لنعود سالمين غانمين.

وبعد الظهيرة كانت الفقرة الأجمل.. حيث رحلنا من الشارقة على حافلتين هي رحلة إلى إمارة الفجيرة.. خرجنا من مدينة الشارقة لندخل أراضي إمارة الفجيرة.. ثم بعدها نخرج من الفجيرة لندخل مرة أخرى أراضي الشارقة مدينة خور فكان ومنها عبرنا إلى«دبا» إحدى مدن الفجيرة وهي مدينة صغيرة تحيطها جبال جرداء.

وخلال رحلة الذهاب والإياب تعرف المشاركون على بعضهم البعض.وممن كانوا على حافلتنا:القاصة والروائية الكويتية منى الشافعي .. تلك المبدعة المحلقة دوما بروحها المرحة وثقافتها الواسعة ..والقاص والروائي محمد المزيني من السعودية بخفة دمه وطلاوة لسانه.. حين أخذت حافلتنا تتمايل من غيث ونسمات تلك الأرواح الشفافة.. كما ضمت الباحث محمد الحرز بشخصيته المحببة والذي شارك ببحث قيم في اليوم الأول للملتقى..والقاص محمد بشير صاحب فلم الافتتاح..وهاني الحجي من السعودية الذي ألقى في تلك الأمسية بدبا قصة أرعبت الحضور عن حياة حفار قبور صاحب مزاج سيء يعاقب الأموات ويفرزهم في جماعات.. وكذلك الباحث فهد الهندال من الكويت الذي قدم بحثا رائعا حول السرد الخليجي.. وجميلة الرويحي.. وأسماء الزرعوني تلك المبدعة التي ظلت قريبة من المشاركين منذ وطأنا أرض الإمارات بابتسامتها الرقيقة.. وشيمة الشمري من السعودية مقدمة أفضل الشهادات الإبداعية حول تجربتها ..حيث أثنى الحضور على ما قدمته..والقاص يحيى المنذري من عُمان الذي ألقى نصوصا ذات عمق في المضمون.. والقاص حميد المختار نائب رئيس اتحاد أدباء العراق.. حين تحدث الناقد رسول محمد رسول في ورقة نقدية حول أعماله القصصية.. واصفا إياه بالشهيد الحي حين كاد يعدم بعد أن حُكم عليه بالسجن ثمان سنوات سجن في بغداد نتيجة مواقفه ضد النظام..وعبد القوي العفيري من اليمن الذي قدم ورقة نقدية أثارت الجدل حول الحداثة والتجريب..والشاعرة المتمردة على القصة الهنوف محمد بديوانها »سماوات« .. حيث يضم نصوصا شعرية جميلة.

وضمت الحافلة الأخرى فوزية رشيد من البحرين والتي ارتجلت سيرة حياتها الفكرية في آخر أمسية.. والقاص والباحث القطري عبدالله سالم.. الذي يتوق إلى تشكيل كيانات أدبية في قطر.. أسوة بمثيلاتها في دول الخليج.. والقاص محسن الهاجري من قطر المشارك بقراءة نصوص حديثة..والقاصة هدى الجهوري ومنى السليمي من عمان واللتان تميزتا بمشاركتيهما .. فالجهوري بنصوصها القصيبة المميزة ومنى بورقتها حول كاتبات القصة في عمان..والقصة باسمة العنزي من الكويت ..التي ألقت في آخر أمسية للملتقى نصا عنقوديا رسمت فيه سيرة حياة أحد المسئولين.. منذ طفولته العنيفة إلى صباه وشبابه المشين ليتبوأ بعد كبره مناصب يتحكم فيها على مصائر البلاد والعباد.. أو هكذا جل مسئولينا في الوطن العربي .. والقاصة ابتسام القاسمي حين قرأت في ثاني أيام الملتقى نصوصا «ق. ق. ج» لتنتزع تصفيق الحضور لأفكار تلك النصوص وأسلوب إلقائها المميز .. والناقد رسول محمد رسول من العراق الذي سلط الضوء على القصة العراقة.. قصص حميد مختار نموذجا.. ورسول شخصية أكاديمية وبحثية فريدة .. والناقد فاضل ثامر رئيس اتحاد الأدباء العراقيين..والشاعر المتميز قاسم سعودي من العراق.. وممن كان لهم ديناميكة في التسهيل للمشاركين.. والإعلامية غالية خوجة.. ومحسن سليمان قاص إماراتي رائع يهوى التصوير ولذلك كنا في كل وقت تحت مرمى عدسته الجاهزة فهو يباغت المستهدف في حالات يقول عن أسلوبه إن أصدق الصور هي غير المرتبة.

وقد تخلف عن رحلتنا إلى الفجيرة الأستاذ عبدالله خليفة.. وعائشة عبدالله ومريم الساعدي

عبرنا الطريق الذي تخللته عدة تجمعات سكانية.. وأسواق شعبية.. منها مدينة الفجيرة التي تقع بين آكام صخرية جرداء لتعانق أبراجها السكنية السماء. ومدينة خور فكان بحديقتها الجميلة.. ثم دبا.

كان الطقس باردا في الفجيرة.. استقبلنا أعضاء جمعية دبا للثقافة والفنون والمسرح..في بيت الشعر البدوي أو كما نسميه في اليمن «الخدر» المفروش بفراش البدو ذي الألوان الفاتحة..جلسنا جلسة عربية ليقدمون القهوة المرة.. كما قُدم لنا عشاء «مجبوس» بعد الأمسية وبعد حفل الختام.. أعاد لأجسادنا بعض الدفء.. صاحب ذلك قصائد مغناة للشعر النبطي .. لشيوخ الشعر في الفجيرة.

اكتملت أيام الملتقى.. وأزف الرحيل.. ليحمل كل منا من قابل من أرواح.. وتلك المشاعر..والتجارب في تلابيب عقله.. لشخصيات بذرت بذور المحبة والتقدير.. ولهذا كم أشعر باختلاف وتميز ملتقى الإمارات.. تميز في التنظيم.. كرم الضيافة.. تفرد شخصيات المشاركين بمشاركاتهم وأخلاقهم الرائعة.. بل أن كل العناصر الجميلة كانت حاضرة.

كان أول المغادرين هم أدباء عمان.. وكانت رحلتهم مساء يوم الختام.. ثم أدباء الكويت والبحرين صبيحة اليوم التالي.. والمشاركين من السعودية بعيد ظهر نفس اليوم.. ولم يتبق إلا المشاركون من اليمن والعراق وقطر إلى يوم السبت.

كان القنصل العام في البعثة الدبلوماسية اليمنية سعادة السفير محمد صالح قطيش.. قد هاتفنا موجها الدعوة بتناول الغداء لديه .. اعتذرنا له مفضلين أن تكون زيارتنا له للسلام عليه .. وكان أن استغللنا اليوم الأخير لنلتقي بسعادة القنصل العام الذي كان ودودا.. تناولنا فنجان قهوة وبعض الكلمات التي تقترب من شغاف القلب.. مع التعبير عن اعتزازنا بحكمة فرقاء السياسة في بلادنا.. حين سلكوا سلوك حقن الدماء وإيقاف دوامة العنف.. معلنين اتفاقهم وتشكيل حكومة ائتلاف وطني.. بعد التوقيع على المبادرة الخليجية.. وهكذا كنا نشعر بالفخر والاعتزاز كيمنيين أينما حللنا أمام من نقابله من الأشقاء الذين يقدرون تلك الحكمة التي تجلت الاتفاق على التغيير.

حين ودعنا سعادة السفير أبى الصديق العزيز عبد الحكيم الحمادي إلا أن يصطحبنا على سيارته في جولة واسعة تشمل معالم دبي والشارقة.. وهو الذي كان حاضرا معنا جميع فعاليات الملتقى .. يتابعنا بكل إحساس الإنسان المحب.

سارت بنا سيارته في شوارع دبي.. ابتداء من أحيائها القديمة إلى أسواقها.. وحدائقها.. ثم اخترقنا شارع الشيخ زايد الذي تقف شاهقات المباني على جانبيه في دلال العذارى.. تتبارى في طولها وحسنها بين الثلاثين والخمسين دوراً بكل لمعان المرايا وصلابة الفولاذ.. دار بنا في أكبر أسواق المدينة«مول » .. تحت أعلى برج يرتفع ويرتفع.. حتى يخيل للرائي بأنه في حلم.. أو أن ذلك البرج رمح ينطلق ليخترق السماء.. كنت قد شاهدت ذلك البرج في التلفزيون وعلى صفحات المجلات.. لكن أن تقف بالقرب منه فذاك حلم.. حلم.. إنجاز إنساني خارق.. إذ تقف تلك الناطحات التي تتجاوز الخمسين دوراً جواره كالأقزام.

شكرا أيها العزيز عبد الحكيم الحمادي.. وأنت المبدع المسرحي.. والدبلوماسي الذي تعتز اليمن به.. فقد حدثنا الكثيرون من اليمنيين في الإمارات عن دماثة أخلاقك وغيرتك على وطنك.

كانت رحلتي إلى صنعاء عبر القاهرة.. ودعت زملائي.. كنت بجد أحمل لكل منهم ذكرى .. ولكل أديب وأديبة مكانة.. أربعة أيام من المشاركة من المعايشة من التآلف .. بل أكثر من ذلك. فشكرا منى الشافعي.. محمد المزيني.. يحيى المنذري ..بسمة العنزي.. محسن سليمان ..عايشة عبدالله.. عبدالله خليفة ..محمد الحرز.. هاني الحجي.. رسول محمد رسول.. عبدالله السالم.. فهد الهندال.. سناء.. جميلة الرويحي.. الهنوف محمد.. عبد القوي العفيري.. محمد البشير.. شيمة الشمري..منى السليمي.. حميد المختار.. هدى الجهوري.. محسن الهاجري.. ابتسام القاسمي.

شكرا لاتحاد الأدباء والكتاب الإماراتيين.. ولكل الجهات الراعية والمشاركة في ذلك الملتقى النوعي.. وشكرا لفريق العمل من سكرتارية ولجان منظمة، وشكرا لإمارة الثقافة» الشارقة».

محمد الغربي عمران
algarby@gmail.com

السيميائيات... بين «بيرس» و«سُوسير»

2-2

عبدالله حمود الفقيه

2- من حيثُ نسبة العلامة إلى المُؤوِّل :

(١ – ٢) التصوُّر : وتُعرف أنَّها «كُلُّ علامةٍ مُفردةٍ أو مُركَّبةٍ لا تصلح لأن تكون حُكماً، بل – فقط – حداً في الحُكم، وهي، بالتالي، لا تحتمل الصدق ولا الكذب»، (١٦)، فهي – بمعنى آخر – جُملةٌ خبريةٌ تُعطي تُصوُّراً لا يُستطاع الحكم عليه بالصدق أو الكذب، كخبر جُملة «السماء صافية».

(٢ – ٢) التصديق : وهي علامةٌ قابلةٌ للحُكم عليها بالصدق أو الكذب، ومثالها جُملة «كُلُّ إنسانٍ فان».

(٣ – ٣) الحجَّة : وهي «تأليفٌ من العلامات لا يتعلَّق سوى بالقواعد»، (١٧)، فهي تتَّسم بالثبات والديمومة من حيثُ كونها قائمةً على أُسس منطقيةٍ واستدلالٍ يسمها بالصدق.

٣– من حيثُ علاقتها بموضوعها :

(١ – ٣) الأيقونة : وفيها تُحيل العلامة إلى موضوعها عبر علاقة المشابهة، مُحاكية موضوعاً مادِّيًّا أو ميتافيزيقياً، كما في الصُّور الفوتوغرافية والمجسَّمات والتماثيل، وكذلك كصُورة العنقاء في الرُّسوم والاستعارات وغيرها، وقد تكون الأيقونة مسموعة لا مُصوَّرة، «مرئية»، كما هُو الحال في الصوت المُسجَّل لشخصٍ ما، فهُو أيقونةٌ تُحيل على الأصل.

(٢ – ٣) المُؤشِّر : وهُو علامةٌ تربطها بموضوعها علاقة المجاورة السببية، فرُؤية الدُّخان في مكانٍ ما يُشير سببيًّا إلى وجود نار، وعلامة السَّير في طريق ما هي إلاَّ إشارةٌ إلى تلك الطريق، وتدخل في إطار هذه العلامة – أيضاً – «أسماء العلم وأسماء الإشارة والضمائر»، (١٨).

(٣ – ٣) الرمز : ويتميَّز بعُرفية العلاقة بين العلامة وموضوعها، أو هي – بمعنى آخر – علاقةٌ اعتباطيةٌ في أصلها، غير أنَّ تعارف الناس وتواضعهم عليها – أيْ العلامة – عمل على تسييقها وربطها بموضوع مُعيَّن، كاللَّون الأحمر في إشارات المرور، وارتباط الحمامة بالسلام... إلخ.

«استناداً إلى هذه المفاهيم لا تستقيم العلامة بالمعنى الكامل إلاَّ بالتئام ثلاثة فُروع، كُلّ فرع من (أحد) الأركان الثلاثة، فهكذا – مثلاً – تكون إشارة السَّير علامةً تصديقيةً شاهديةً قانونيةً، وكلمة (بيت) علامةٌ تصوُّريةٌ رمزيةٌ قانونية... إلخ»، (١٩).

ولا يقف الأمر عند هذا الحدِّ من التقسيم والتفريع، بل تتمدَّد تقسيمات «بيرس» وتفريعاته للعلامة حتَّى تصل إلى ما يُقارب الستَّة والستِّين نوعاً، وهذا أحد ما أخذ عليه في نظريته السيميوطيقية.

والأمر الآخر أنَّ العلامة لدى «بيرس» بكافَّة تفريعاتها، تتوالد وتتناسل، «مُفرخةً» علامات أخرى، وتلك، بدورها، تُصبح علامات تُشير إلى علامات، وهكذا تتكاثر حتَّى يُصبح الكون دائرةً مُغلقةً تُغلِّفها العلامات من كُلِّ مكان، ما حدا بـ «إميل بنفنيست» أن يُصوِّب سهام النقد له في «سيميولوجيا اللُّغة»، آخذاً عليه تحويله كُلَّ مظاهر الكون – حتَّى الإنسان ومشاعره وأحاسيسه وتفكيره – إلى علامات، ويتساءل : «كيف يُمكن أن نخرج عن نطاق عالم العلامات المغلق نفسه؟ هل نستطيع في نظام (بيرس) أن نجد نُقطةً خارج هذا السياج تُرسي فيها علاقة تربط بين العلامة وشيءٍ آخر غير نفسها»، (٢٠).

2- اتِّجاه «سُوسير» السيميولوجي

□ في العام ١٩١٦م صدر كتاب «دُروسٌ في علم اللُّغة العام» للعالم السُّويسري «فرديناند دي سُوسير»، (ت ١٩١٣م)، الذي كان عبارةً عن مُحاضرات ألقاها على تلامذته، ليُحدث تغييراً كبيراً في مسار الدراسات اللُّغوية والحياة العلمية والإبستمولوجية عُموماً، وفي هذا الكتاب نصٌّ بشَّر فيه «سُوسير» بظهور علم جديد أطلق عليه «السيميولوجيا»، يقول «سُوسير» : «إنَّ اللسان نسقٌ من العلامات المُعبِّرة عن أفكار، وهُو بذلك شبيهٌ بأبجدية الصُّم والبُكم وبالطقوس الرمزية وبأشكال الآداب والإشارات العسكرية، إلاَّ أنَّه يُعدُّ أرقى هذه الأنساق، من هُنا تأتي إمكانية البحث عن علم يقوم بدراسة هذه العلامات داخل الحياة الاجتماعية (...)، ويُمكن أن نُطلق على هذا العلم السيميولوجيا، وستكون مُهمَّته هي التعرُّف على كُنه هذه العلامات وعلى القوانين التي تحكمها (...)، ولن تكون اللسانيات سوى جُزء من هذا العلم العام، وستُطبَّق قوانينه، التي سيتمُّ الكشف عنها، على اللسانيات»، (٢١)، فالسيميولوجيا – حسب تصوُّر «سُوسير» – علمٌ عامٌّ تُشكِّله مجموعةٌ من الأنساق – أو «الأنظمة»، حسب بعض الترجمات – وهذه الأنظمة، أو الأنساق، قد تكون لسانيةً أو غير لسانية، فاللسان ليس إلاَّ جُزءاً من هذا العلم العام، وإن كان أرقى الأنساق السيميائية، ولأنَّه كذلك، فسوف تستقي الأنساق الأخرى – غير اللسانية – منه مفاهيمها وتعبيراتها إلى أن تصل الدراسات السيميولوجية إلى قوانين عامَّة، حينها ستُطبَّق هذه القوانين على اللسانيات.

ويُحدِّد «سُوسير» وظيفة هذا العلم بدراسة العلامات داخل الحياة الاجتماعية للتعرُّف على كُنهها والقوانين التي تحكمها، ويبرز بجلاء انعكاس تصوُّر «سُوسير» للسان على مفهومه للسيميولوجيا عُموماً والعلامة بوجه خاصٍّ، ومن ذلك صحَّ أن يُطلق على سيميولوجيته «السيميولوجيا اللُّغوية».

العلامة «السُّوسيرية» : العلامة عند «سُوسير» كيانٌ يُشكِّله عُنصران مُزدوجان مُترابطان ترابط وجهيّ الورقة، هُما : «الدال»، و«المدلول»، فالأوَّل هُو الصُّورة الصوتية السمعية المُكوَّنة من مجموعة من الأصوات، التي تنتقل إلى دماغ المستمع فتُثير تصوُّراً – أوَّ أثراً – نفسياً ما لديه، وممَّا يُدلل على تلك الطبيعة النفسية أنَّنا «نستطيع أن نتحدَّث إلى أنفسنا أو نستظهر مسرحيةً أو قصيدةً شعْريَّةً دُون تحريك الشفاه»، (٢٢)، فالدال صُورةٌ صوتيةٌ نفسيةٌ وليست ماديَّة، أمَّا المدلول، فهُو تصوُّرٌ ذهنيٌّ يمتلكه الفرد عن الواقع الخارجي، وكونه تصوُّراً يقصي عنه الطابع الماديِّ المحسوس، وهُو – كالدالّ – ذُو طبيعة نفسية، فالدالّ يُحيل إلى صُورةٍ أو – بالأحرى – تصوُّرٍ ذهنيٍّ وليس إلى شيءٍ ماديٍّ خارجيٍّ.

من ذلك يُلاحظ أنَّ نظرية «سُوسير» تُقصي المرجع الخارجي عن العلامة، ما جعلها – على العكس من العلامة «البيرسية» – كياناً ثُنائياً غير مُتعلِّق بمرجعية خارجية، الأمر الذي وسمها بالانغلاق على ذاتها وشكْلنة الخارج للانطواء على الداخل.

ومن مُميِّزات العلامة عند «سُوسير» اعتباطية العلاقة بين عُنصريها : «الدالّ»، و«المدلول»، بمعنى أنَّه لا وجود لعلاقة عقلية طبيعية تُبرِّر إحالة الدالّ على المدلول، «فاختيار الأصوات لأ تفرضه مُقتضيات المعنى، فـ (فكرة/أُخت/لا تربطها أيَّة علاقة داخلية مع المتوالية الصوتية/أ خ ت/التي تُعتبر دالاً لها، فبالإمكان التمثيل لها بأيَّة مُتوالية صوتية أخرى)، فلا شيء يمنع – سوى قُوَّة العُرف – من إسناد هذه المتوالية الصوتية إلى هذا التصوُّر الذهني»، (٢٣)، وعلى ذلك قس بقيَّة الدوال السيميولوجية، ما عدا المحاكيات للطبيعة، كمواء القطَّة وخرير الماء وأصوات التعجُّب، فعلاقتها طبيعية.

وليس معنى الاعتباط أنَّ باستطاعتك أن تفصم عُراها وتنقض غزلها، لأنَّ العُرف أكسبها سُلطةً تجعلها مفروضةً على الفرد وخارج نطاق قُدرته، فكثيرٌ من العادات والتقاليد أصبحت أنساقاً سيميائيةً مفروضةً بفعل التعارف والتواضع، ولا شيء غير ذلك يُبرِّر العلاقة بين دوالِّها ومدلولاتها، كلبس السواد عند الموت في بعض المجتمعات، وكما هُو الحال في «الصيني الذي يُحيِّي امبراطوره بالانحناء تسع مرَّات»، (٢٤).

ويُلخِّص الدُّكتور «جميل حمداوي» مُميِّزات الدليل، «العلامة»، عند «سُوسير» في الآتي، (٢٥) :

١– الدليل صُورةٌ نفسيةٌ مُرتبطةٌ باللُّغة لا بالكلام.

٢– الدليل يستند إلى عُنصرين أساسيين : «الدالّ»، و«المدلول»، مع إبعاد الواقع المادِّي أو المرجعي، لأنَّ إقصاء المرجع يعني أنَّ لسانيات «سُوسير» شكلانية وليست ذات بُعد ماديٍّ واقعيّ.

٣– اعتباطية الدليل، ما عدا الأصوات الطبيعيَّة وصيغ التعجُّب.

٤– في دراسة الأدلَّة غير اللفظية، يُعتبر النُّموذج اللساني هُو الأمثل والأصل في المقايسة.

٥– إنَّ الدليل «السُّوسيري» مُحايد، يُقصي الذات والأيديولوجيا ويتَّسم بالتجريد، (أ . هـ).

شكَّلت أطروحات «سُوسير» عن العلامة في إطار توجُّهه اللساني، مُنطلقاً مُهمًّا للمقاربات السيميائية والتوجُّهات التي جاءت بعده، وطوَّرت مفاهيمه ومبادئه، كما نجدها عند «بارت» و«بنفنيست» وغيرهما، وكما هُو الحال في أيِّ نظرية، وُجِّهت سهام النقد إلى «سُوسير» وتصوُّراته السيميولوجية ممَّن جاؤوا بعده، فـ «رُولان بارت» يأخذ عليه مُبالغته في تغليف طرفي العلامة بالجانب النفسي، ثُمَّ يعمد إلى ما قاله «سُوسير» عن علاقة السيميولوجيا باللسانيات، واضعاً الأخيرة تحت مظلَّة الأولى، ليقوم «بارت» بقلب طرفي المعادلة ويجعل اللسانيات أصلاً والسيميولوجيا فرعاً منها، لا العكس.

من جهة أخرى قام «بنفنيست» بتعديل في نظرة «سُوسير» القائلة باعتباطية العلاقة بين الدالّ والمدلُول، لينسب الاعتباطية إلى العلامة – كاملةً – وما تُشير إليه، فالدالّ والمدلول مُتلازمان في أذهان الأفراد ماهيَّةً وجوهراً، لكنَّ العلاقة بين العلامة وما تُشير إليه اعتباطيةٌ عُرفية.

ومهما يكن الأمر، فإنَّ هذين العَلَمَيْن : «سُوسير»، و«بيرس» – على ما بينهما من اختلاف – شكَّلا الانطلاقة الأولى للسيميائية كعلم عامّ، وعنهما انطلقت اتِّجاهاتٌ سيميائيةٌ مُتعدِّدة، كـ : «سيمياء الدلالة»، «سيمياء التواصل»، «سيمياء الثقافة»، وما إلى هُنالك من اتِّجاهات كُلُّها تستظلّ بالسيميائية، كما تصوَّرها «سُوسير» و«بيرس» مع تطويرٍ في تصوُّراتهما ورُؤاهما.

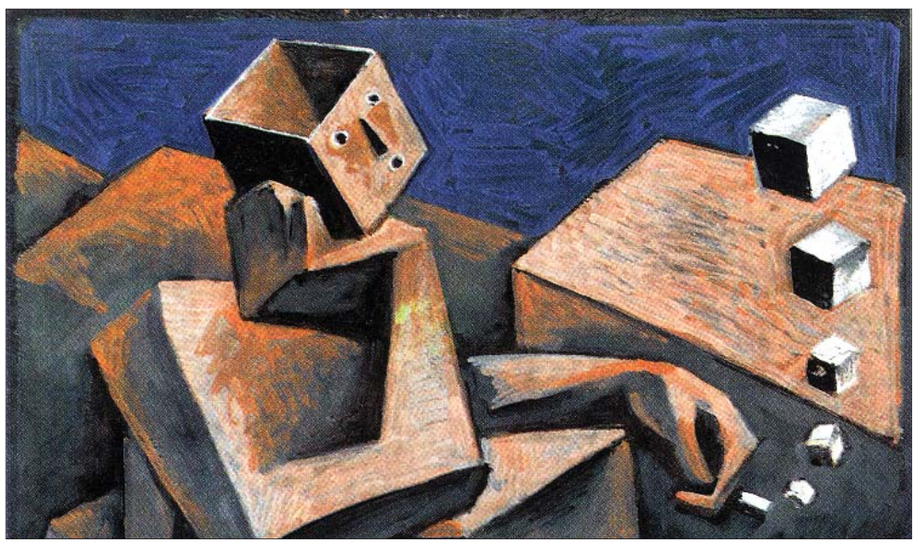

هامش:

٢١– «السيميائية ... مفاهيمها وتطبيقاتها»، مرجعٌ سابق، (صـ٤٤).
٢٢– نفس المصدر السابق، (صـ٥١).
٢٣– نفس المصدر السابق، (صـ٥٣).
٢٤– نفس المصدر السابق، (صـ٥٢).
٢٥– يُنظر : «السيميوطيقا والعنونة»، «عالم الفكر»، (صـ٨٨).